

دعوةً واسعة لانتخاذه العامية لساناً للأدب والعلم، وأحدث ذلك رجّة عنيفة في مصر والبلاد العربية، وتصدّى له حماة العربية وفي مقدمتهم حافظ إبراهيم إذ سرعان ما نشر قصيدته: «اللغة العربية تنعى حظّها بين أهلها» مصوّباً أبياتها بل سهامها إلى دعوته، فقضت عليها قضاءً مبرماً، وفيها يقول على لسان اللغة العربية:

وَسِعَتْ كِتَابَ اللَّهِ لَفْظًا وَغَايَةً وَمَا ضَعُتْ عَنْ آيٍ بِهِ وَعِظَاتٍ
فَكَيْفَ أَضِيقُ الْيَوْمَ عَنْ وَصْفِ آلَةٍ وَتَنْسِيقِ أَسْمَاءٍ لِمَخْتَرَعَاتِ
أَنَا الْبَحْرُ فِي أَحْشَائِهِ الدُّرُّ كَامِنٌ فَهَلْ سَأَلُوا الْغَوَاصَّ عَنْ صَدْفَاتِي

وحافظ يردُّ في هذه الأبيات على ما كان يردّده أعداء العربية من أنها لا تحمل لغة العلم الحديث ومخترعاته، ويقول إن هذا ليس من قصور فيها وإنما هو قصور في أهلها حينئذ، ومعروف أنها تلافت هذا القصور فيما بعد. ويقول إنه يكفيها فخراً أنها وسعت كتاب الله مشيراً إلى ما سيحدث من قطيعة بيننا وبين لغة القرآن وأيضاً بيننا وبين ماضينا إن نحن أصخنا لدعوة ويلمور المغرضة، وقد قوضتها قصيدة حافظ من أساسها، واضطر ويلمور إلى مغادرة مصر وأوبته إلى بلاده، وكان ذلك نصراً مبيناً لحافظ وحماة العربية وأبنائها الأبرار في كل مكان، ونوه شوقي بذلك في مرثيته له منشداً:

يَا حَافِظَ الْفُضْحَى وَحَارِسَ مَجْدِهَا وَإِمَامَ مَنْ نَجَلَتْ مِنَ الْبَلْغَاءِ
مَا زِلْتَ تَهْتَفُ بِالْقَدِيمِ وَفَضْلِهِ حَتَّى حَمَيْتَ أَمَانَةَ الْقَدَمَاءِ

وقد مضى حافظ يستشعر بقوة معاني الأخوة بين أبناء مصر وأبناء البلاد العربية، وليس غريباً أن يلقب شاعر النيل: أدناه وأعلاه: مصر والسودان، ومراً بنا أنه أقام بالسودان سنوات قليلة. ولا نصل معه إلى سنة ١٩٠٨ حتى نرى جماعة من السوريين يقيمون له حفل تكريم بفندق شبرد، وفيه ينشد آيته البديعة السائرة: «الأمّتان تتصافحان» ويستهلها بقوله:

لِمِصْرَ أُمَّ لِرَبْوَعِ الشَّامِ تَنْتَسِبُ هُنَا الْعُلَا وَهُنَاكَ الْمَجْدُ وَالْحَسْبُ